ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

الاستعمالات اللغوية في الجزائر، التاريخ والحاضر

إعداد: د/رضا دغبار
جامعة الجزائر 01

مقدّمة

إنّ محاولتنا لدراسة اللغات التي تعاقبت على الجزائر منذ أقدم عصورها إلى يومنا الحالي لا بدّ أن تمر بالضرورة على دراسة تاريخ شعوبها المتعاقبة، لأنّ اللغة ما هي إلاّ امتداد طبيعي للشعوب المستعملة لها، أو لنقل بشكل أدق هما وجهان لعملة واحدة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، بحيث إذا ظهر شعب فالضرورة سترافقه لغة يتواصل بها أفراده مع بعضهم البعض، كما لا يمكن أن نتصوّر وجود لغة بدون وجود شعب يستعملها.

الجزائر: الشعوب، التاريخ واللغات

إنّ الجزائر تعتبر من أقدم بلدان العالم، وشعوبها من أعرق الشعوب وأقدمها وكغيرها من تلك البلدان شهدت مراحل مختلفة عبر تاريخها الطويل، خاصّة بفعل موقعها الجغرافي الذي يتوسّط قارتي أوروبا وأفريقيا، وإطلالها المتميّز على البحر الأبيض المتوسّط ودورها الحاسم والفعّال الذي أكسبها مكانة لا يستهان بها بين الشعوب والأمم في الماضي القريب والبعيد.

أمّا عن تاريخ سكان الجزائر القدماء فهو متوغّل في القدم، فذهب بعضهم إلى اعتبار سكانها القدامى ما هم إلاّ خليط سلالات قدمت إليها وإلى الشمال الإفريقي عموما، من مناطق مختلفة من العالم وفي أزمنة متعدّدة، وبمرور الزمن أضحوا كتلة قومية واحدة وفصيلة بشرية مميّزة في قارة إفريقيا مقارنة بغيرها من الأمم الإفريقية الأخرى، ولعلّ من تلك السلالات نذكر الميد والفرس والأرمن والذين رُوي أنّهم قدموا من إيجاب بإحدى الجزر اليونانية رفقة الملك الإيجابي هيركوليس هرقل لغزو إيبريا بإسبانيا، فقضى هرقل نحبه، ولم تتوان إسبانيا في طرد هؤلاء الغازين فتشتّتوا في البلاد المجاورة والتي كان من بينها الجزائر واندمجوا مع سكانها الأصليين[1].

ويرجع بعض المؤرّخين تاريخ الإنسان الأوّل الذي سكن الجزائر إلى حوالي 500 ألف سنة وهم رجال من النوع الآتلانتروبي، وهو منحدر من سلالة بيتقانتروب(الذين اكتشفت آثارهم في ولاية مستغانم)، ثمّ تلاهم سكان من النوع الأتيري(الذين اكتشفت آثارهم في بئر العاتر بولاية تبسة)، ثمّ تلاهم

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

سكان من النوع إبيروموروزيان(الذين اكتشفت آثارهم في مشتة العربي بولاية قسنطينة)، ثمّ تلاهم سكان من النوع الكابيسيان كانوا منتشرين في الشرق والصحراء[2].

ومهما يكن من اختلاف في آراء المؤرّخين والباحثين الجغرافيين وعلماء الأجناس والآثار حول سكان الجزائر الأصليين، فالمتفق عليه عندهم جميعا أنّ سلالة سكان إفريقيا الشمالية القدامى كانت من الجنس الأبيض، الذي يعود إليه الفضل في تشييد الأسس الأولى للمدنيات القديمة، وقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير حين اعتبروا شمال إفريقيا هي مهد الإنسان الأوّل في العالم وهو الجنس الأبيض فهجروا منها إلى أوروبا وغيرها من القارات الأخرى، وسندهم في ذلك مختلف الاكتشافات الحفرية الحديثة، خاصّة في منطقة معسكر بالجزائر التي عثروا فيها على هيكلين عظميين إنسانيين يعود تاريخ أوّلهما إلى حوالي 450ألف سنة، والثاني إلى حوالي نصف مليون سنة[3].

ويقسّم العلماء تاريخ إفريقيا الشمالية والجزائر إلى ثلاث حقب تاريخية: تاريخ عصر البليستوسين، أو ما يُسمّى بالعصر الجليدي ويُرجّح المؤرّخون أن يعود تاريخيه إلى حوالي مليون سنة مضت، ثمّ تاريخ العصر الحجري الذي يرجعه المؤرّخون إلى حوالي 12000سنة، وأنّ تاريخ البشرية قاطبة يعود إلى حوالي100.000سنة أو 240.000سنة بحسب بعض التقديرات، وأخيرا تاريخ ما قبل وبعد الفتح الإسلامي، حيث تعاقبت على تاريخ ما قبل الفتح الإسلامي أمم عظيمة هي: البربر الذين يعتبرون بلا منازع السكان الأصليين، ثمّ الفينيقيون ثمّ الرومان ثمّ الفندال فالروم البيزنطيون وهم في الحقيقة سكان إفريقيا الشمالية-التي تحمل نفس الخصائص الجغرافية والتاريخية-كلّها قديما لهذا وُصف الشمال الإفريقي بالتماسك إلاّ في مراحل استثنائية جدّا حيث عرف بعض الهزّات[4].

لغات وديانات سكان الجزائر القدامى:

إنّ التقسيم المتداول اليوم في الأوساط التاريخية واللغوية حول لغات سكان الجزائر الأوائل مبني بالدرجة الأولى على دراسات وتصنيفات لغوية تفاضلية ومقارنة بين اللغات البشرية، حيث حاول علماء فقه اللغة المقارن(Philologie comparee) أن يبحثوا في أصول اللغات الحديثة المستعملة بين مختلف شعوب العالم، ومقارنتها بعضها ببعض ثمّ مع اللغات القديمة لمحاولة إيجاد صلات وقرابات لغوية يثبتون من خلالها أنّها من فصيلة

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

بشرية معيّنة(سامية أو حامية أو آرية-يافثية-)، وهذه الطريقة في التقسيم بدأت في القرن التاسع عشر عندما باشر علماء تاريخ اللغات دراسة الاختلافات الموجودة بين اللغات ذاتها بغض النّظر عن الشعوب التي تستعملها، ليستدلوا لغويا على الأجناس والأنساب البشرية التي تتكلّم بها[5].

وتذهب الدراسات التاريخية واللغوية والأثرية إلى أنّ لغات ولهجات سكان الجزائر القدامى لم يرد لهم ذكر في التاريخ، وأنّه من غير المستبعد إذا أخذنا بمقولة أنّ قدماء المصريين هم من سلالة سكان الجزائر ومراكش، أن تكون لغات ولهجات قدماء الجزائر أخت لغة قدماء المصريين والليبيين، وهذا القول يستند إلى رأي يقول أنّ منذ حوالي3500سنة قبل الميلاد، حدثت هجرة للجالية العربية الأولى نحو شعبتين الأولى إلى دجلة والفرات والثانية إلى واد النيل، وتعتبر هذه الهجرة تمهيدا لهجرات أخرى كانت أشهرها نحو بلاد المغرب، وهذا بدوره خلق نوعا من الامتزاج بين السكان مع بعضهم البعض أدّى بالضرورة إلى توحّد لغاتهم ولهجاتهم[6].

إذن وبناءً على ما سبق ذكره، فمن الطبيعي أن تكون تلك الشعوب قد عرفت عدّة لغات ولهجات في مختلف الحقب التاريخية التي مرّت بها، قد تكون آثار ومخلّفات بعضها لا تزال إلى اليوم في الجزائر شرقا وغربا جنوبا وشمالا، وخاصّة في مختلف الكتابات والرسومات المتناثرة هنا وهناك من أرض الوطن، والتي لا تزال محفوظة في بعض القبور الرومانية والأماكن الفينيقية وغيرها.

الحقبة البربرية:

إنّ البربر في الجزائر وإفريقيا الشمالية عموما هم سكان الأقاليم الواقع بين حدود واحة سيوة المتاخمة للبلاد المصرية شرقا إلى ساحل البحر المحيط الأطلسي وإلى ضفّة وادي النيجر جنوبا،-والبربر لفظ أطلقه اليونانيون على كلّ إنسان أجنبي عنهم لا يتكلّم بلغتهم، بما فيهم السكان الأصليين لهذا الوطن، وعلى كلّ إنسان ليس يونانيا-[7]، ليسوا وليدي التاريخ القريب أو أنّهم طفرة في هذه الأرض بل هم حقيقة تاريخية وواقع ملموس من أقدم العصور، بالرغم من أنّ تاريخهم الدقيق بالمنطقة يبقى مجهولا، وهم أمّة عريقة جدّا تعايشت مع عدّة أمم أخرى مرّت بالجزائر واستقرّت بها لزمن طويل كالفرس واليونانيين والفينيقيين والرومانيين والبيزنطيين والعرب والمسلمين والعثمانيين والإسبانيين وأخيرا الفرنسيين.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

أمّا عن أصل البربر الأوّل فإنّ المؤرّخين قد اختلفوا فيه اختلافا عظيما، حيث لا توجد قرائن علمية دقيقة حول منشأهم الأصلي، غير أنّ الثابت أنّهم من أصل آدم ثمّ نوح، وقد كثرت الأقوال في ذلك، حيث اعتمد العلماء في إرجاع أصلهم عدّة طرق اختلفت باختلاف نظرتهم ومشاربهم الدينية والثقافية، فكانوا تارة يعتمدون على المنطقة الجغرافية، وتارة أخرى على الخلقة-لون البشرة، الشعر، البنية الجسدية..- وتارة على الصناعة واللغة وهلّم جرا وبذلك كانوا عادة ما يقولون أنّهم نشئوا بالمغرب أي أنّهم من أبناء المنطقة الأوائل، أو أنّهم إيجيون جاءوا من بحر إيجه، -بحر الأرخبيل باليونان-أو أنّهم ساميون أنساب العرب، أو أنّهم من العبرانيين والبونيقيين، أو أنّهم من نسل نقشان-نفسان- بن إبراهيم عليه السلام، أو أنّهم من ولد النعمان بن حمير ابن سبأ -أي أنّهم عرب-، أو أنّهم أوزاع من اليمن، أو من حمير أو مضر أو قرنيش وهي قبائل سامية، أو القبط-والقبط وكنعان قبيلتان ساميتان باتفاق-، أو أنّهم من عملاق بن لاوذ بن أرم بن سام بن نوح، أو أنّهم حاميون من مصراييم بن حام، أو أنّهم من مازيغ بن كنعان بن حام أو أنّهم من الفرس، أو من سام أو من يافث، أو من اليونان، أو هنود، أو أوربيون
-أندلس، إيطاليا، وجزيرتي سردانيا والكورس، جنوب فرنسا-[8].

ويُرجّح عبد الرحمن الجيلالي بأنّهم ساميو الأصل والنشأة، وهم من أبناء مازيغ بن كنعان استنادا إلى قولهم عند قدومهم إلى خليفة رسول الله ×الثاني عمر بن الخطّاب بعد فتح مصر وتصريحهم له بأنّهم ينتسبون إلى مازيغ وأنّهم السكان الأصليون للبلاد الواقعة بين خليج العرب-البحر الأحمر- والبحر المحيط ولم يقولوا له أنّهم (بربر)[9].

ويذكر التاريخ أنّهم تعايشوا بنوع من السلام والهدوء مع الفينيقيين القادمين من الشام والذين استوطنوا بشمال إفريقيا عموما والجزائر خصوصا لزمن طويل يمتدّ إلى عدّة قرون، حيث ساندوهم (الفينيقيين في حروبهم مع الأقوام الأخرى وكانوا ساعدهم القوي إلاّ أنّ علاقتهم بهم كانت تتخلّلها بعض المناوشات الطبيعية والحروب أو لنقل الثورات التي تعتبر أمرا طبيعيا في أيّ أمّة من الأمم[10].

ومن الطبيعي أن يكون البربر قد تواصلوا واختلطوا بغيرهم من الشعوب الأخرى لأنّ الحياة الاجتماعية والظروف السياسية والواقع الجغرافي وطبيعة الأرض، كانت تفرض عليهم ذلك، وهذا التواصل والاختلاط جعلهم يختلطون مع الأمم السامية والحامية الأخرى المهاجرة إلى شمال إفريقيا عموما

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

والجزائر على وجه الدقّة والخصوص، ويندمجون ويمتزجون معهم مشكّلين لحمة بشرية واحدة متعايشة، إلى غاية ذوبان الوافدين تماما في البربر، ولعلّ هذا ما جعل بعض الباحثين يتوهّمون أنّ البربر وفدوا كلّهم من دول أخرى(ليسوا سكانا أصليين) وبالتّالي فهم طارئون على هذا البلد[11].

وجدير بالملاحظة أنّ البربر أمّة لم تنقرض منذ العصر القديم(أصلها الأوّل)، وإنّما انقرضت الأمم الأخرى التي سبقتهم في شمال إفريقيا عامّة والجزائر خاصّة في العصر الحجري[12].

لغة ولهجات البربر:

إنّ إثبات أصل لغة من اللغات يعني إثبات أصل المجتمع الذي يتكلّم بها من ناحية وإثبات تاريخه من ناحية أخرى، لأنّ من لا تاريخ له لا واقع له ولا مستقبل، ولذلك فقد كانت اللغة البربرية(الأمازيغية) في الجزائر منذ الاستقلال خاصّة رهانا سياسيا أكثر من كونه رهانا تاريخيا، والحقيقة التي يجب الإشارة إليها أنّ القضية اللغوية البربرية عامّة في الجزائر، كانت صنيعة استعمارية، حيث إنّ التعايش بين من يُدْعَوْنَ من المجتمع الجزائري بالبربر(أو الأمازيغ) والعرب، كان تعايشا سلميا منذ فَتَحَ المسلمون الجزائر، وبالتّالي لم تُطرح المسألة الأمازيغية أو القضية اللغوية في الجزائر إلاّ بمجيء الاستعمار الذي عمل على تشتيت وصال المجتمع الواحد مطبّقا قاعدة: فرّق تسد، وقد تفطّن ابن باديس إلى تلك المكيدة فقال موحّدا المجتمع الجزائري عربا وبربرا:

شعب الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتسب من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب.

ورغم ذلك تبقى القضية محلَ صراعات ونزاعات سياسية إلى اليوم، وشرحها يتطلّب مقالا أو دراسة منفردة.

أمّا عن أصل اللغة البربرية، فيقول مبارك بن محمّد الميلي: ((إنّ لغة قدماء مصر والنوبة والحبشة والبربر ترجع إلى
أصل واحد... وتشبه لغتهم(البربر) لغات الشمال الشرقي من إفريقيا ولغات أوروبا الجنوبية والغربية))[13] ، ويضيف قائلا: ((وأمّا اللغة فإنّه لا مشابهة بين لغات البربر واللغات السامية نحوا وتصريفا، ولها مشابهة من حيث التركيب بلغة قدماء مصر والنوبة والحبشة والصومال والهوصا، وفيها ألفاظ أوروبية وهندية))[14].

ومن الطبيعي أن تتطوّر اللغة تبعا لتطوّر مستعمليها، ولهذا كانت اللغة البربرية تشبه خطّه البسيط ووضعه الطبيعي باعتباره إنسانا أوّلا، كما أنّها

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

تتفرّع مثلها في ذلك مثل اللغات الأخرى القديمة والحديثة إلى لهجات وتعرف صيغا مختلفة كما هي معروفة عليه اليوم في كلّ من الجزائر ومراكش والمغرب والصحراء، حيث لبلاد القبائل لهجتهم الخاصّة بهم(لهجة زواوة) ولهجة الشاوية، ولهجة الشلوح، ولهجة بني ميزاب، والتوراق...وإن اختلفت فيما بينها ببعض الخصوصيات الصوتية والإفرادية والتركيبية والدلالية، كما أنّ ما يُطلق عليه بـ: تمازغت أو تمازشغت تندرج تحته اللغة المازيغية بكلّ فروعها ولهجاتها ويعتبرها عبد الرحمن الجيلالي فرعا من اللغات الكوشية أو الحامية وكلّها تعود إلى جذر واحد له صلة مباشرة باللغات السامية[15].

الحقبة الفينيقية:

الفينيقيون اسم يُطلق على الأمّة الشرقية المنحدرة عن الفرع الكنعاني السامي والقادمون من موطنهم الأصلي فينيقية الموجود بآسيا الصغرى، وبالذات غرب الشام بين جبل لبنان والبحر، يحدّه كلّ من بيروت وطرابلس والشام وصيدا وصور.

قدموا إلى الجزائر محتلّين وفي القرن العاشر قبل مولد السيّد المسيح تأسّست المناطق الفينيقية الأولى وفي القرن الثالث والثاني قبل مولده السيّد تأسّست الدولة الجزائرية عن طريق سيفاكس ثمّ ماسينيسا والتي اتخذت سيقا عاصمة لها ثمّ سيرتا المركز الاقتصادي والتجاري المزدهر والقوي.

أمّا اللغة الفينيقية ولهجاتها فيقول فقهاء علم اللغة المقارن أنّها ترجع إلى أصل واحد مع العربية وأنّها شقيقة لها، وأنّ البربر قد أقبلوا عليها لوجود قرابة بينها وبين لغتهم، وكذا من التواصل الذي حدث بين الجنس الكنعاني بأهلها، وقد أكّدت الفينيقية عنصر السامية في بلاد البربر ومهّدت للغة العربية وللعروبة بصفة عامّة[16].

الحقبة الاستعمارية الرومانية(40سنة قبل السيّد المسيح، القرن4):

إنّ الاحتلال الروماني للجزائر لقي معارضة وثورة شديدتين من قبل يوغرطا الذي كبّد الرومانيين خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات بفضل استراتيجية حرب العصابات التي اتخذها كوسيلة للدفاع عن التراب النوميدي الذي حاولت روما جعله قطعة لا تتجزّأ من إمبراطوريتها، وبعد اغتياله (بعد عدّة سنوات من المقاومة) سنة104 قبل المسيح ظهرت مقاومات أخرى بعده كمقاومة تاكفاريناس وغيره كثيرون حيث لم تهدأ المنطقة من الثورات لمدّة خمسة قرون، ثمّ جاءت الفترة البيزنطية بقيادة جوستينيان إلاّ أنّها لم تدم طويلا

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

لأنّه بمجرد طرد الوندال سنة534 جاء الإسلام ليحرّر الجزائر نهائيا من الغزاة المستعمرين[17].

أمّا من الناحية اللغوية، فقد شهدت اتخاذ السلطة الرومانية من اللغة اللاتينية لغة رسمية لنظام الحكم، أي تستعمل كلغة في المعاملات الإدارية والخطابات السياسية والعلاقات الدبلوماسية، والتوثيق العبادات(في الكنيسة) وترك كلّ من اللغتين الفينيقية والبربرية للاستعمال الشعبي في الحياة اليومية للسكان الأصليين، وبذلك كانت الثلاثية اللغوية (أو التعدّد اللغوي) هي المهيمنة في تلك الحقبة، ويؤكّد هذا التعدّد اللغوي مارسيل بن عبّو حيث يقول: يظهر أنّ التعدّد اللغوي كان هو القاعدة في أفريقيا الرومانية[18].

وعليه يمكننا القول إنّ الحقبة الرومانية عرفت على المستوى الرسمي(حكم المستعمر) والمستوى الشعبي(الفينيقي والجزائري) ثلاثية لغوية في آن واحد: اللاتينية، لغة رسمية الفينيقية والبربرية(الأمازيغية) بلهجاتها المختلفة(القبائلية، المزابية الشاوية...)لغتين عاميتين[19].

الحقبة العربية الإسلامية(من القرن8 إلى القرن15):

لقد عاش سكان الشمال الإفريقي عموما وسكان الجزائر خصوصا لقرون طويلة جدّا تحت رحمة الديانتين المسيحية واليهودية خاصّة، بفعل الاستعمار الذي جثم على أعناق النّاس بقوّة السلاح والنّار، والاضطرابات الخطيرة التي شهدها شمال إفريقيا أو شبه جزيرة العرب على المستويات: السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية...والتي كانت من نتائجها المباشرة تمزّق وتشتّت وتحطيم أقاليم المنطقة، خاصّة وأنّها تعرّضت لأبشع استعمار هو الاستعمار الروماني المدجّج بترسانته العسكرية والحربية، والذي عمل بشراسة على خدمة المصالح الشخصية والضّيقة لإمبراطوريته.

هذا، ولم تتعرّض منطقة شمال إفريقيا عموما والسكان الجزائريون خصوصا إلى الاعتداء الروماني فحسب، بل طالها الاعتداء الوندالي والبيزنطي، ممّا عمّق من متاعب السكان وأثقل كاهلهم حتّى صارت حياتهم كارثية في كلّ المستويات فلم يجدوا أفضل من التمرّد والثورة وسيلتين للتخلّص من المستعمرين، كما وجب عليهم الاستعانة الخارجية وذلك بالاستنجاد بحلفائهم العرب والمسلمين في شبه الجزيرة العربية وذلك في القرن السابع للميلاد، ولم يتوان هؤلاء في شدّ الرحال إلى شمال إفريقيا لتخليصها من العدو الغاشم، مدجّجين بسلاح جديد ومن نوع مغاير تماما لم يألفه سكان المنطقة وغزاتها وهو سلاح العقيدة الإسلامية المشبع بالمثل

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

الإسلامية العليا، وقد كان للشقاق الكبير أو لنقل للهوّة الكبيرة بين سكان المنطقة الأصليين والغزاة البيزنطيين أي رابط أو تلاحم أو تأييد –بالرغم من القرون الطويلة التي مكث فيها الرومان والبيزنطيون في المنطقة-يُمَكّنُ المستعمرين من التصدّي للهجمة الإسلامية[20] التي حرّرت البلاد والعباد، ولم يجد العرب والمسلمون صعوبات تذكر في الاندماج الاجتماعي والسياسي مع الجزائريين الأمازيغ، وقد لقوا قبولا واستحسانا وإقبالا كبيرا منهم، بفعل أخلاقهم الحميدة وسلوكاتهم وأخلاقهم الإسلامية الرفيعة، بل وتبنّى الأمازيغ تلك المنظومة الدينية والفكرية والأخلاقية الجديدة الوافدة، واندمجوا مع العرب والمسلمين وتلاحموا معهم تلاحما شديدا قضى تماما على التشتّت والتّمزّق الذي خلّفه الرومانيون ثمّ البيزنطيون في لحمة الجزائريين وغيرهم من سكان الأقاليم الأخرى في المنطقة، وتوحّد الدين واللغة وصارت المنطقة بأسرها امتدادا للخلافة الإسلامية في المدينة المنوّرة ثمّ دمشق فبغداد، وبقيت المنطقة بهذا النظام تحت هذه السلطة الموحدة والوحيدة(الخلافة) إلى غاية عهدة الخليفة هارون الرشيد، لينتقل الحكم فيما بعد إلى حكام جدد تزعّموا أوطانهم بعد ظهور أحداث وتطوّرات جديدة ومغايرة، لكن مع المحافظة على الولاء والانتماء إلى الدين الإسلامي[21].

بالإضافة إلى ذلك كلّه فمن الطبيعي أن يحمل هذا الدين الجديد إلى المنطقة بأسرها لغة أخرى جديدة لم يعهدها السكان الأصليون، حيث فرضت اللغة العربية نفسها عليهم باعتبارها أوّلا لغة السلطة الحاكمة(المسلمين) ولغة الدين والقرآن الكريم(أي العبادات) ثانيا، فكان من الطبيعي أن تكون بذلك لغة رسمية لإدارة السلطة المركزية، تستخدم في كلّ المعاملات الإدارية والسياسية والدبلوماسية ولغة للدين، تستعمل في المساجد في الخطب والدروس والمواعظ وغيرها، بينما تستعمل اللغة العربية الدارجة(العامية) والبربرية في التواصل الاجتماعي للجزائريين في حياتهم اليومية في شكل ثنائية لغوية منسجمة متعايشة في هدوء وسلام، وهكذا عرفت هذه الحقبة من الحكم العربي الإسلامي هيمنة وضعية لغوية تتسم بالازدواجية اللغوية[22] من جهة(العربية الفصحى/والبربرية)، وبالثنائية اللغوية من جهة أخرى(العربية الفصحى/ والدارجة)[23].

الحقبة التركية(من القرن 9إلى القرن 18):

إنّ قدوم العثمانيين إلى الجزائر لم يكن غزوا أو استعمارا وإنّما كان تلبية لطلب من الشيخ سليمان التومي شيخ الثعالبة وأمير الجزائر العاصمة حينذاك،

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

حيث تعرّض المغرب العربي إلى التهديد الخارجي وبالذات الإسباني بعد الإطاحة بالحكم الإسلامي في الأندلس سنة1492م، واحتلالهم للجزائر بين سنتي1505-1513 إسقاطهم لعدّة مدن جزائرية كالمرسى الكبير ووهران وتلمسان وبجاية وإخضاعها لسلطتهم[24].

لقد كان قدوم العثمانيين في بداية القرن العاشر بقيادة الأخوين عروج وخير الدّين بربروس-الذين يعود الفضل إليهما في اتخاذ الجزائر عاصمة سياسية بمثابة إنقاذ حقيقي للجزائر وللمنطقة ككل من الاحتلال الخارجي الصليبي، حيث شكّلوا جبهة قتال وجهاد مع الجزائريين لصد المعتدين وحماية الوطن، فأقاموا حكما إسلاميا منيعا استمر لثلاثة قرون من الزمن، وبالرغم من الود وحسن المعاملة التي تلقاها العثمانيون من الجزائريين إلاّ أنّهم أبعدوهم عن الحكم الذي جعلوه تركيا وليس إسلاميا وجعلوه حكرا على الأتراك فقط، وهي في الحقيقة نقطة سوداء في الحكم التركي للجزائر إلى جانب نقاط أخرى يطول ذكرها[25].

وفي النهاية، وبعد استشهاد عروج سنة1518 واعتلاء أخيه خير الدين سدّة الحكم خضع لطاعة السلطان العثماني سليم الأوّل لمساعدته، وأخضع بذلك الجزائر بصفة رسمية للحكم العثماني وأرسى خير الدين فيها نظاما مميّزا استمر إلى غاية سقوط العاصمة بيد الفرنسيين واحتلالهم للجزائر سنة1830[26].

الجانب اللغوي في عهد الحكم التركي:

إذن فقد جعل العثمانيون من الجزائر مدينة قوية حصينة من كلّ الجوانب لثلاثة قرون من الزمن، وصارت قطبا مهمّا يُتنافس عليه، فقصدته عدّة شعوب من داخل البلاد وخارجها، وهذا ما خلق تنوّعا لغويا لتنوّع المجتمعات التي سكنت الجزائر آنذاك، يقول C A Julien: لقد كان تنوّع اللغات تقريبا أكثر من تنوّع الأجناس[27]، ومن هنا تتجلّى لنا وضعية التعددية اللغوية في العهد التركي، حيث كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية لغة الإدارات والمكتوب والدّين، في حين كانت اللغة التركية لغة السلطة والمجتمع الصغير، أي الطبقة العسكرية والبحرية والأرستقراطية.

يقول A PELLEPEN: لقد كانت اللغة الرسمية للأتراك هي اللغة الفصحى، لكن فيما بينهم كانوا يتكلّمون التركية الشرقية[28].

ويشير شيخ المؤرّخين أبو القاسم سعد الله رحمه الله أنّ حكام الجزائر العثمانيين كانوا دائما من خارج الجزائر(من أصول مختلفة: تركية، يونانية،

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ألبانية، وإيطالية...)، وكان معظمهم يتكلّم اللغة التركية، ولذلك كانوا يوصفون بالأعلاج[29].

ومن هنا نستنتج أنّ الأتراك لم يفرضوا لغتهم في الجزائر، وبهذا كانت اللغة العربية (الفصحى/والدارجة) أكثر هيمنة من طرف السكان الجزائريين الأصليين خاصّة وأنّها كانت متعلّقة تعلّقا شديدا بالدين والتعليم.

إلى جانب هذا نجد اللغة البربرية مستعملة بكثرة بعد اللغة العربية من طرف السكان القبائل وبني مزاب في الحياة

اليومية، إلى جانب هذا نجد اللغة العبرية كانت مستعملة من طرف أقلية يهودية نسبيا(5000) من أصل إفريقي قديم[30].

وفي ظلّ هذا الجو التجاري النشيط ظهرت لغة تجارية Lingua Franca وهي لغة تجارية تستعمل في المبادلات التجارية وتُطلق أيضا على ما يُعرف بالأجنبية بمصطلح Sabir أي اللغة الهجينة المستعملة إلى غاية القرن التاسع عشر في ميناءات البحر الأبيض المتوسط، وهي مكوّنة أساسا من الإيطالية والمالطية، وتحمل مختلف عناصر اللغات الرومانية وبعض العناصر من العربية والتركية وتسمّى Lingua Franca كل لغة مكوّنة من النموذج نفسه[31].

وبهذا تميّزت الحقبة التركية الثرية لغويا باحتكاك عدّة لغات، وقد خلق هذا الاحتكاك هيمنة ثلاث وضعيات لغوية: *-تعدّدية لغوية بين: التركية، البربرية، اللغات الأوروبية، واللغة الهجينة.

*-وثنائية لغوية بين: العربية الفصحى/الدارجة، البربرية(الأمازيغية): ولغة بني مزاب[32].

الحقبة الاستعمارية الفرنسية(1830-1962):

وتأتي الحقبة الفرنسية لتحدث تغييرا جذريا في الجزائر بما في ذلك الوضعية اللغوية فبمجرد مجيء الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر عمل على طمس الشخصية والثقافة العربية الإسلامية ففرض التعليم باللغة الفرنسية التي جعلها لغة رسمية في البلاد بينما صارت العربية دستوريا لغة أجنبية لا يُدرّس بها أبدا، اللهمّ إلاّ بعض الزوايا وهذا بقرار من الحكومة الفرنسية سنة 1883: لا يُسمح التدريس باللغة العربية إلاّ خارج ساعات التدريس في الأقسام[33].

إنّ الفرنسية صارت مهيمنة دستوريا واستعمال لغة رسمية للاستعمار، ولغة التخاطب عند المجتمع الفرنسي(إنّ الفرنسية اللغوية مسّت كذلك الكثير من الفرنسيين الذين كانوا يتكلّمون باللغات المحلية) الإسبانيون، الإيطاليون

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

المالطيون، الألزاسيون، تخلوا عن لغاتهم التي تصل إلى الأجيال الصاعدة التي تقرأ هي الأخرى بالفرنسية.

وبهذا نلاحظ هيمنة اللغة الفرنسية وطغيانها على الإدارات والمكتوب والتعليم والمعاملات اليومية، بينما حوصرت العربية في المساجد والزوايا والعدالة الإسلامية، إلى جانب طبعا اللغة الدارجة والبربرية(أمازيغية وميزابية) لغة الحياة اليومية والشعب الجزائري.

وهكذا يمكننا القول: إنّ الحقبة الفرنسية تميّزت بـ:

*-تعددية لغوية: فرنسية، عربية، وبربرية.

*-ثنائية لغوية: (عربية فصحى/دارجة وبربرية/ أمازيغية أو ميزابية) وبروز تنوّع لهجي للغة الفرنسية، وهكذا تغيّرت الخريطة اللغوية في الجزائر كثيرا منذ الاحتلال الفرنسي[34].

حقبة جزائر الاستقلال(1962-2014):

أمّا فيما يخص حقبة ما بعد الاستعمار الفرنسي(الجزائر المستقلّة)، فإنّ الذي لا يختلف فيه اثنان أنّ مخلّفات الاستعمار اللغوية لا يزال يعاني منها المجتمع الجزائري على كلّ المستويات: في التعليم، في الإدارات، في الصحافة المكتوبة والمسموعة...وحتّى في اللغة اليومية، حيث لا تخلو أبدا من اللغة الفرنسية من تقهقر مكانة هذه اللغة دستوريا مقارنة باللغة العربية الفصحى الوطنية الأولى والرسمية واللغة الأمازيغية وإلى المرتبة الرابعة بعد العربية الفصحى والدارجة والبربرية من حيث الاستعمال، فاللغة العربية عادت إلى مكانتها كلغة وطنية لغة رسمية للإدارات والدين والمعاملات الرسمية والدبلوماسية واللغة العربية الدارجة(خليط من الفرنسية وبعض الألفاظ القليلة جدّا المتبقية من اللغات الأخرى المتعاقبة على الجزائر كالتركية والإسبانية وكذا التي كانت في احتكاك دائم مع العربية كالفارسية...) لغة الحياة اليومية للمجتمع واللغة البربرية منحصرة في بعض مناطق الشرق الجزائري خاصّة وبعض العائلات النازحة إلى العاصمة من تلك المناطق أو المتنقلة إلى بعض المناطق الأخرى لكن عادة ما بقي استعمالها في البيوت خاصّة، والفرنسية لغة التعليم، لغة الصحافة واللغة اليومية عند بعض المثقّفين والمكوّنين تكوينا فرنسيا، هذا مع أنّ التعريب الشامل بدأ تطبيقه في السنوات الأخيرة في الجزائر.

وبهذا يمكننا القول: إنّ مرحلة الجزائر المستقلّة تتميّز بـ:

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

*-ثلاثية لغويةTriglossie (عربية فصحى، فرنسية، وبربرية) أو Continum أو سلّم استمراري أو Continum أو سلّم استمراري بين: العربية الفصحى /العامية/الأمازيغية(البربرية والشاوية والشلحية...)[35].

إنّ تعايش كل تلك اللغات السالفة الذكر في تاريخ الجزائر الطويل قد خلق وضعا لغويا جزائريا معقّدا، خلّف اقتراض عدد معتبر من الكلمات التركية في الاستعمالات اليومية، ونلمس آثار اللغات الأوروبية خاصّة الإسبانية التي تركت بصماتها في الغرب الجزائري خاصّة بمدينة وهران وبعض السواحل البحرية التي سكنها عدد هائل من المستعمرين الإسبانيين واللاجئين من الحرب الأهلية، ثمّ الاقتباس من اللغة الإيطالية التي كانت في احتكاك دائم مع اللغة العربية في الشرق الجزائري، كلّ ذلك جعل كلمات عديدة مقتبسة أقحمت في الاستعمال اليومي للمجتمع الجزائري[36]، وهذا الوضع يمثّل حالةً لغويةً طبيعية وليست مرضية، وهذا ما يُعبّر عنه فينيليب قاردنير شلوروس بقوله: ((يوجد تغيّر الوضع لأنّ أغلبية المجتمعات تستعمل أكثر من لغة واحدة، وأنّ كلّ لغة من اللغات لها بنياتها الخاصّة بها، بالإضافة إلى ذلك كلّ واحدة تحمل لهجات محلية أو اجتماعية أو تنوّعات لهجية أو لهجات مهنية مختلفة))[37].

كما خلق أيضا ظاهرة التداخل اللغوي التي يُعرفها وليام ماكاي William. MACKEY بقوله: ((انتقال عناصر أو وحدات تنتمي إلى لغة ما أثناء الحديث أو الكتابة إلى لغة أخرى))[38].

تشيباTCHIPA: وهي كلمة إسبانية افتبست إلى الاستعمال العامي العاصمي وانتشرت انتشارا واسعا جدّا عبر التراب الوطني، وقد ظهرت عند تجار الشنطة أوّلا وأخذت في الانتشار كالبرق عند التجار الرسميين وغير الرسميين(تجار السوق السوداء) وأصحاب التصدير والاستيراد، لتنتقل إلى الاستعمال الأوسع في المجتمع الجزائري للدلالة على تفشي الفساد واستفحاله فيه، وهو في الحقيقة من حيث الدلالة اللغوية تعني الرشوة أو ما كان يُطلق عليه في الجزائر بلفظ القهوة، ثمّ أصبح يُستعمل(تسمية الأشياء بغير مسمياتها) بمصطلح الـTCHIPA حتّى يُعطى لهذه الفعلة الشنيعة في الشريعة الإسلامية والقيم الاجتماعية للمجتمع الجزائر شرعية دينية واجتماعية لشدّة وقع الرشوة الشرعي أصلا في نفوس النّاس الذين لا تتقبّل نفوسهم نعتهم بالمرتشين أو الراشين وهم مسلمون يقيمون الصلاة ويدركون جيّدا معاني الآية الكريمة عن الراشي والمرتشي والماشين بينهما.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

أمّا إلى عدنا إلى أصل مصطلح الـTCHIPA فهي اسم مؤنّث إسباني الأصل انتقل إلى بورتوريكو وبعض دول أمريكا اللاتينية وهو يُستعمل بمعنى سلّة الثمار والفواكه تُعطى في الأعياد للدلالة على المحبّة والكرم وحسن الضيافة[39] دون مقابل أو خدمة تنتظر من المقدّمة إليه، عكس دلالة استعمالها في الجزائر، حيث انزاحت عن معناها الأصلي إلى معنى آخر يدلّ على المساومة والإكراه.

الهوامش:

1-عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأوّل، دار الثقافة، بيروت1400هـ-1980م، ص32.

2-الجزائر الدليل الاقتصادي والاجتماعي، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، 1989، ص19.

3-عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي، المرجع السابق، ص33.

4-المرجع نفسه، ص30-31.

5-عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي، المرجع السابق، ص31-32.

6-المرجع نفسه، ص34.

7-المرجع نفسه، ص35.

8-مبارك بن محمّد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمّد الميلي، الجزء الأوّل، المؤسسة الوطنية للكتاب(دون ذكر تاريخ ومكان الطبع)، ص81-85.

9-عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي، المرجع السابق، ص35.

10-مبارك بن محمّد الميلي، المرجع نفسه، ص80.

11-عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، صفة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1400هـ-1980م ص19.

12-مبارك بن محمّد الميلي، المرجع السابق، ص74.13-مبارك بن محمّد الميلي، المرجع السابق، ص73.

13-مبارك بن محمّد الميلي، المرجع السابق، ص73.

14-المرجع نفسه، ص85.

15-عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي، المرجع السابق، ص45.

16-عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي، المرجع السابق، ص48.

17-الجزائر الدليل الاقتصادي والاجتماعي، المرجع السابق، ص20.

18-MORSLY Dalila, Alger plurilingue, Plurilinguismes, Numéro spécial: Alger plurilingue N12, Décembre 1996, pp51-52.

19-op.cit, pp74.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

20-يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، الجزء الأوّل، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت1995، ص9.
21-يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص10.
22-امحمّد راجحي الزغلول، ازدواجية اللغة: نظرة في حاضر العربية وتطلّع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية مجلّة: اللسان العربي، المجلّد الثامن عشر الجزء الأوّل، مكتب تنسيق التعريب بالرباط، المغرب1980، ص21.
23-MORSLY Dalila, ibid, p74.
24-مؤيد محمود حمد المشهداني.م.م.سلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني1518-1830 مجلّة الدراسات التاريخية والحضارية(مجلّة علمية محكمة)، المجلّد5 العدد16 نيسان2013م، جمادي الآخر1434ه، ص415.
25-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأوّل 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى بيروت1998 ص15، وانظر كذلك: ص169.
26-مؤيد محمود حمد المشهداني.م.م.سلوان رشيد رمضان، المرجع نفسه، ص411.
[27]-MORSLY Dalila, ibid, p56.
[28]-MORSLY Dalila, ibid, p57.
[29]-أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص14.
[30] -MORSLY Dalila, op.cit, p58.
[31]-Jean DUBOIS, Dictionnaire de linguistique, Librairie Larousse1973, p300.
[32] -MORSLY Dalila, op.cit, pp74-75.
[33] -MORSLY Dalila, ibid, p62.
[34]-op.cit, pp74-75.
[35]-MORSLY Dalila, op.cit, pp74-75.
[36]-Khaoula TALEB IBRAHIMI, Les Algériens et leur(s) langue(s), 2eme ed, ed El Hikma, Alger1997, p34.
[37]-Phenelope Gargner-CHLOROS, Code Switching : Approche principales et perspectives, La Linguistique, R .S .L .F, volume19, fascicule1, 1983, p22.
[38]-William.MACKEY, Bilinguisme et Contact des langues,editions Klincksieck Paris1976, p400.
[39]-Robert LARRIEU, Dictionnaire modern espanol-français espanol, Paris1951, p52.

المراجع:

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

1-يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، الجزء الأوّل، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت1995.
2-عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأوّل، دار الثقافة، بيروت1400هـ-1980م.
3-امحمّد راجحي الزغلول، ازدواجية اللغة: نظرة في حاضر العربية وتطلّع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية مجلّة: اللسان العربي المجلّد الثامن عشر الجزء الأوّل، مكتب تنسيق التعريب بالرباط، المغرب1980.
4-عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، صفة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1400هـ-1980م.
5-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأوّل 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى بيروت1998.
6-مؤيد محمود حمد المشهداني.م.م.سلوان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني1518-1830 مجلّة الدراسات التاريخية والحضارية(مجلّة علمية محكمة)، المجلّد5 العدد16 نيسان2013م، جمادي الآخر1434ه.
7-مبارك بن محمّد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمّد الميلي، الجزء الأوّل، المؤسسة الوطنية للكتاب(دون ذكر تاريخ ومكان الطبع).
8-الجزائر الدليل الاقتصادي والاجتماعي، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 1989.
9-Jean DUBOIS, Dictionnaire de linguistique, Librairie Larousse1973.
10-Khaoula TALEB IBRAHIMI, Les Algériens et leur(s) langue(s), 2eme ed, ed El Hikma, Alger1997.
11-William.MACKEY, Bilinguisme et Contact des langues,editions Klincksieck Paris1976.
12-MORSLY Dalila, Alger plurilingue, Plurilinguismes, Numéro spécial: Alger plurilingue N12, Décembre 1996.
13-Phenelope Gargner-CHLOROS, Code Switching : Approche principales et perspectives, La Linguistique, R .S .L .F, volume19, fascicule1, 1983.
14-Robert LARRIEU, Dictionnaire modern espanol-français espanol, Paris1951.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421